القرآن الكريم والتفكير

الدكتور أحمد الحوفى

مقدمـــة ..

سيتناول بحثنا عناية القرآن الكريم بالعقل والتفكيـــر ممثلة فى عدة مناح هى :

* تقدير القرآن للعلم والتفكير ..
* الله مانح العلم ..
* تقدير القرآن للعلماء ..
* التفكير يهدى الى الايمان ..
* تحكيم التفكير فى الاستدلال على وحدانية الله وقدرته ..
* تمثيل موقظ للفكر ..
* أحكام مقرونة بالتفكير ..
* سخرية ممن لا يفكرون ..

تقدير القرآن للعلم والتفكير

أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليكمل به الاديان ، ويختتم به الشرائع ، وينير للناس مسالك الحق والعدل والخير ، وما يكفل لهم صلاح شئونهم أفرادا وجماعات .

وما كان لاحد أن يعجب لو أن القرآن الكريم كله نزل نصحا وتشريعا وقصصا وتوجيها فى صيغ من الامر والنهى وليست مقرونـــة

بحض على تعقل أو علم أو تفكير ، لانها تكليف من الخالق عز وجل يلزم بالتصديق وبالطاعة والانقياد ، ولكن القرآن الكريم جاء كذلك تارة وجاء تارة أخرى مصحوبا بالدعوة الى التعقل ، والتنويه بالفكر ، والاشادة بالتدبر ، والتقدير للعلم والعلماء ، وتقريع الجهال والغافلين والسخرية ممن لا يفكرون .

وليس العلم الذى يشيد به القرآن مقصورا على نوع من العلم معين وليس التفكير الذى يهيب به القرآن محصورا فى نطاق من المعرفة محدد ، فان العلم الذى ينوه به القرآن الكريم عام يشمل أنواع العلوم كلها ، والتفكير الذى يدعو اليه القرآن الكريم فسيح لألوان التفكير كله ، لأن ثمن القرآن الكريم تقريبا آيات متصلة بالعلوم عامة ، والبقية عقائد وعبادات وتشريع وتاريخ وأخلاق ، ولا غرابة فى أن القرآن الكريم عنى بالعلم والفكر هذه العناية لان العقل هبة من الله ينميها التفكير ويغذيها العلم ، ويرقيها استخدامها فيما خلقت له ، لتهدى الى الحق والخير ، ولتدفع الى الاقرار بوحدانية الله وقدرته وحكمته ، ولتمكن للناس أن ينتفعوا بما خلق الله فى الارض وفى السماء ، ولتكفل لهم حياة أرقى وأسعد وأرغد .

فلو أن العلماء قدروا ما منحهم الله من علم وفكر حق قدره لخلص علمهم للحق ، ولتمحض عملهم للخير ، ولنزهوا هبة المولى سبحانه وتعالى عما لا يصح أن يستخدم فيه من افساد وعدوان وتخريب وطغيان .

ولو أن العلماء أصاخوا الى هتاف العلوم بهم لآمنوا بأن

الكون كله ينطق بأنه وليد قدرة لاتدانيها قدرة ، وخاضع لتدبير محكم لا يشابهه تدبير ، ومسير بحكمة ليس لها نظير .

أما الذين يلحدون بعد علم ، أو يكفرون بعد معرفة ، فان علمهم كالعين بغير بصر ، وكالجسد بغير روح .

وأما الذين يسيئون الى العلم فيستخدمونه فى التدمير فانهم قد ضلوا وأضلوا ، وجحدوا وظيفة العلم ونعمة الفكر وهبة الله ، وحكموا فى علاقات البشر ـ وهم اخوة ـ شريعة الغاب وطبيعة المخلب والناب .

وهيهات للناس أن ينعموا بطمأنينة وعلى ظهر الارض من يعيثون فيها فسادا ، ويبغون علوا واستكبارا .

وانه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم يزخر بمئات الايات التى تشيد بالعلم ، وتحض على التفكير ، وتسخر بالجهل وتعطيل العقل .

وحسبنا أن نمثل بهذه الكلمات ومشتقاتها :

فقد جاءت مادة العلم مرادا بها علم الناس لا علم الله فى نحو ستمئه آية .

ـ والرأى بمعنى العلم فى نحو ثمانين .
ـ والنظر بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين .

- والابصار بمعنى العلم فى نحو ثلاث وعشرين .
- وترددت مادة العقل فى تسع وأربعين .
- والقلب بمعنى العقل فى مئة وثلاث وثلاثين .
- والنهى بمعنى العقل فى ثنتين .
- والفؤاد بمعنى العقل فى ست عشرة .
- والألباب بمعنى العقول فى ست عشرة .
- ووردت مادة الفكر فى ثمانى عشرة .
- وتكررت مادة الفقه بمعنى الفهم فى عشرين .
- والتدبر فى أربع .
- والفهم فى واحدة .
- والرشد فى تسع عشرة .
- والذكر فى نيف ومئتين .
- والحكمة فى عشرين .
- والعبرة فى سبع .
- وذكرت مادة القراءة فى سبع عشرة .
- والتلاوة فى ثنتين وستين .
- والكتابة بمعنى الخط فى نحو ثلاث مئة .
- والقلم فى أربع .
- والصحف فى ثمان .
- والدرس ومادته فى ست .

اللـــه مانـــح العلـــم :

يوقن كل مسلم بأن العلم من صفات الله الحسنى ، وبأنـــه تعالى العليم الذى لا يتبدل علمه ولا يعجز ولا يتخلف ، فهو يعلـــم

من خلق ،ويعلم ما خلق ، علم احاطة وشمول ويقين .

ويعلم الماضى والحاضر والمستقبل ، على درجة سواء من الصدق والدقة واليقين .

ويعلم ما ظهر وما استتر ، وما خفى وما استعلن فى ملكوته الذى يرتد الفكر عن ادراك سعته وهو حسير .

ويعلم السر والنجوى وما هو اخفى .

كذلك يعتقد كل مسلم أن الله تعالى هو مانح العلم ومعطيه والميسر له .

فهو الذى أنزل الشرائع على رسله الذين اجتباهم لتبليغ الرسالات فحدد أصولها ، وسن أسسها ، ووضح معالمها ، وأمر فيها بما يكفل الخير للأفراد والاسر والجماعات والبشرية كلها ، ونهاهم عما يلحق الاضرار بهم أو بغيرهم ، ثم أخذ العلماء يفصلون ويوضحون ويفرعون ويستنبطون ، فالله سبحانه وتعالى هو الذى علم الشرائع ، وهو الذى خلق العقول التى تفكر وتفصل وتوضح وتستنبط .

والله تعالى هو الذى برأ الناس ، وزودهم بالأعضاء التى يعملون بها ، وبالحواس التى بها يدركون ويتعلمون ، من سمع وبصر ولمس وشم وذوق ، ومنحهم العقل والذاكرة والخيال ، وخلق الأحياء والمواد التى يديرون عليها علمهم وتجاربهم ، ويتخذون

منها آلات البحث والدرس وأدواته ، على تنوع العلم وتعـــــــدد ميادينه .

فلولا الجسوم وصحتها ومرضها ، ولولا المادة التى يصنع منها الدواء وآلات الكشف والعلاج ما كان طب .

وهل الاجسام والمواد الا من خلق الله ؟
ولولا النبات ما كان علم النبات .
وان البذرة والتربة والماء والهواء من خلق الله ولولا النجوم والكواكب ما كان علم الفلك .

أليس الله تعالى هو الذى خلق الكواكب والنجوم ، وهو الـــذى برأ العقول التى ترصد الأجرام السماوية وتدرسها ؟

ولولا الفلزات والعناصر والمواد عامة ما كانت الكيميـــاء والله تعالى هو الخالق لها ، والخالق للمواد التى تصنع منها الأجهزة التى يستخدمها علماء الكيمياء .

وهكذا تنطق الأمثلة بأن الله تعالى مانح العلم ومعطيـــه والميسر له .

فنحن إذ نعلم فإنما نحفظ ونتذكر ونفكر ونتخيل بقـــوى وعقول أكرمنا بها الله .

وحينما نعمل نستخدم الأعضاء والجوارح والقوى والقـدرة التى وهبنا الله .

فعلى العلماء أن يقدروا هذه المنحة قدرها ، فيخلص علمهم للحق ويتمحض عملهم للخير ، وينزهوا هبة المولى تعالى عما لا يصح أن يستخدم فيه من فساد وتخريب وتدمير وعدوان .

وعليهم ألا يغتروا بعلمهم ، فإنه ضئيل أيما ضآلة ، ذليل أيما ذلة ، إذا ما قيس إلى علم الله ؛ لأن علمهم ناقص وعلم الله كامل،وعلمهم متغير وعلم الله ثابت ، وعلمهم ظنى وعلم الله يقينى ، وعلمهم مقصور على ما يدركون ، بل على بعض ما يدركون ، وعلم الله شامل لما يدركونه ومالا يدركونه .

قال تعالى : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .(١)

وذلك أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الروح ، فأخبرهم أنها مما استأثر الله بعلمه ، وكانت اليهود قد بعثت إلى قريش ليسألوا النبى عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، وقالوا لهم: إن أجاب عنها كلها أو سكت عنها كلها فليس بنبى ، وإن أجاب على بعض وسكت عن بعض فهو نبى ، فبين النبى لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذى القرنين وأبهم أمر الروح فندم اليهود ؛ لأن حقيقة الروح مبهمة فى التوراة أيضا ولكن عنادهم أضلهم عن تصديق النبى .

ولقد قرر القرآن الكريم فى آيات كثيرة أن الله تعالى هو العليم ، والله تعالى هو الذى يمنح بعض العلم من شاء من عباده .

---

(١) سورة الإسراء (٨٥).

١ ـ فحينما أخبر الملائكة أنه سبحانه سيخلق فى الأرض خليفة له أو لهم عجبوا من أن يستخلف مكانهم ـ وهم أهل الطاعة الذين يسبحون بحمده ـ لا يعصونه ، فرد عليهم سبحانه بأنه يعلم من المصالح والغيب ما يخفى عليهم ، ثم بين لهم بالتجربة أنه يعلم مالا يعلمون ، فعرف آدم الاجناس التى خلقها ، وعلمه أحوالها ، ثم عرض هذه الاجناس على الملائكة ، واستنبأهم عنها ـ وهو يعلم عجزهم عن المعرفة فأقروا فى اذعان بأنهم لا يعلمون الا ما علمهم الله ، فأمر آدم أن ينبئهم بما جهلوه ، فلما نبأهم قال لهم سبحانه أنه قد أخبرهم بأنه العليم بخفايا السموات والارض وبما يبدون وما يكتمون .

قال تعالى : (واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال : انى اعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال: انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم . قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون).[1]

٢ ـ ولقد اصطفى من عباده رسلا أوحى اليهم ما أوحى ، وألهمهم ضروبا من العلم والمعرفة ، وبعثهم هداة الى الحق

---

(١) سورة البقرة ٣٠-٣١ .

والخير ومعلمين للناس ،ومبلغين ما أمرهم بتبليغه .

(أ) قال تعالى فى قصة نوح عليه السلام : (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) [١]

فصنع نوح السفينة بأمر من الله وتعليم وهداية والهام ثم حمل فيها من كل زوجين اثنين ، فلما جاء الطوفان نجا نوح ومن آمنوا به وغرق العصاة .

(ب) وقال تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام : (واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) . [٢]

فقد أنكر ابراهيم على أبيه وقومه عبادة الأصنام ، ووصفهم بالضلال المبين ، وكان هذا بإلهام من الله وتوفيق ، لأن الله تعالى هو الذى علمه ، وهو الذى أراه دلائل وحدانيته وقدراته فى السموات والأرض ليزداد ايمانا ، وليقيم الحجة على من يحاجونه .

وقال : (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ،

---

(١) سورة هود ٣٦-٣٧ . لا تبتئس : لا تحزن .
(٢) سورة الانعام ٧٤-٧٥
ملكوت : الملكوت الملك العظيم .

نرفع درجاتٍ من نشاء ، ان ربك حكيم عليم) [١]

(ج) وهو سبحانه وتعالى الذى ألهم "يوسف" عليه السلام تأويل الأحلام ، فإنه لما قص رؤياه على أبيه قال له أبوه : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) . [٢]

وقال تعالى على لسان يوسف : (رب قد آتيتنى من الملك، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت ولىى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين) . [٣]

(د) وجاء فى قصة موسى عليه السلام وفتاه أنهما لقيا رجلا منحه الله علما ومعرفة ببعض الغيب (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما) [٤]

---

(١) سورة الأنعام (٨٤) .
(٢) سورة يوسف (٦) .
أبويك : جدك الثانى ابراهيم اتخذه الله خليلا ، ونجاه من النار ومن ذبح ابنه ، وجده الاول اسحاق الذى نسل يعقوب والاسباط من صلبه .
(٣) سورة يوسف (١٠١) .
(٤) سورة الكهف (٦٥) .

(هـ) وذكر تعالى فى قصة داود عليه السلام أنه آتاه ملكا ونبوة بعد أن قتل جالوت ، وأنه علمه ما شاء أن يعلمه من صنعة الدروع وغيرها .

قال تعالى : (وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء)[١]

وقال تعالى :(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون)[٢]

(و) وذكر سبحانه وتعالى فى قصة داود وسليمان أن غنم الرجل رعت فى الليل زرعا لرجل آخر ، فأكلته كله ، فشكا إلى داود وسليمان فحكم داود بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم تعويضا لزرعه ، فخالفه سليمان وحكم بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم لينتفع بألبانها وأولادها وأصوافها وبأن يتولى صاحب الغنم شئون الزرع حتى يعود كما كان ، ثم يسترد كل منهما ما كان له ، وهذا قضاء ألهمه الله سليمان عليه السلام .

قال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ، وسخرنا مع داود

---

(١) سورة البقرة (٢٥١).
(٢) سورة الأنبياء (٨٠).

الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين) [١]

(ز) وجاء فى قصة عيسى عليه السلام أن الله تعالى يقول له يوم القيامة : اذكر نعمتى عليك وعلى أمك فى الدنيا إذ أيدتك بالوحى وأنطقتك طفلا بما يبرىء أمك، وانطقتك كبيرا بما أوحيت إليك ، واذكر أننى أنعمت عليك بتعليمك الكتابة وألهمتك صواب القول والعمل ، وعلمتك التوراة والإنجيل ، وأقدرتك على معجزات ، فجعلت من الطين طائرا بإذنى ، ونفخت فيها فصارت طائرا حيا بقدرتى ، وشفيت من العمى من وُلد أعمى بإذنى ، وأحييت الميت بقدرتى ونجيتك من اليهود الذين دبروا الوسيلة لقتلك .

قال تعالى : (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الاكمه والأبرص باذنى ، وإذ تخرج الموتى باذنى ، وإذ كففت بنى اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) [٢]

---

(١) سورة الأنبياء (٧٨ – ٧٩).
نفشت : رعت ليلا حكما : حكمة

(٢) سورة المائدة (١١٠).

(خ) ولقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ليعلم المسلمين القرآن والسنة ، وينقذهم من مهاوى الشرك والوثنية ، ويهديهم إلى العقيدة الصحيحة والشريعة الخاتمة للشرائع ، ويسن لهم الطرق القويمة فى الاخلاق والمعاملات وما ينفعهم فى شئون الدنيا والآخرة ، ويقص عليهم الاخبار الصحيحة للماضين عظة وذكرى .

قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) (١)

وقال سبحانه : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) (٢)

وهو سبحانه الذى علم النبى مالم يكن يعلم من أمور الدين والشرائع ومن خفيات الأمور ، قال تعالى : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) (٣)

---

(١) سورة البقرة (١٥١) .
يزكيكم : يطهركم من خبائث الشرك والوثنية .
الحكمة : السنة أو المعرفة بالدين والفقه فيه أو العلم بأحكام الله التى لا يدرك علمها إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٢) سورة الجمعة (٢) .
(٣) سورة النساء (١١٣) .

ونهاه عن تعجيل القرآن فلا تساوق قراءته قراءة جبريل، بل يتأنى إذا ما لقنه جبريل ، ريثما يسمع ويفهم ، ثم يقبل على ما سمع بالحفظ ، وأمره أن يستزيد الله تعالى من علمه.

قال سبحانه : (ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علما).[١]

٣ ـ وهو سبحانه وتعالى يمنح العلم والصواب من يشاء من عباده ، ويوفق للعمل الصالح بالعلم النافع من يريد ، ومن يمنحه الله هذه الحكمة فقد فاز بخير كثير ، ولكن لا يتذكر هذا ويفقهه إلا أصحاب العقول المفكرة .

قال تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب)[٢]

وذلك أنه جل وعلا مصدر العلم وواهبه ؛ لأن الناس يولدون جهالا لا يعلمون شيئا ، ولكنهم بوسائل العلم والمعرفة التى منحهم الله إياها يعلمون ما ينفعهم ويضرهم ، قال تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)[٣]

وهو الذى علم الناس الكلام بلغة ملفوظة مسموعة مفهومة

---

(١) سورة طه (١١٤).
(٢) سورة البقرة (٢٦٩).
(٣) سورة النحل (٧٨).

تميزهم فى صنوف الحيوان ، وعلمهم الكتابة بما أودع فيهم من قوة ، وبما خلق لهم من وسائل المعرفة ، فاستطاعوا ان يقيدوا أفكارهم وعلومهم وآراءهم ، فهم من بين مخلوقات الله على الأرض الناطقون الكاتبون .

قال تعالى : (الرحمن.علم القرآن ، خلق الإنسان.علمه البيان .) (١)

قال سبحانه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق.اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) (٢)

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ،وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا). (٣)

فأمرهم إذا تعاملوا بدين مؤجل إلى موعد معين أن يكتبوه؛ لأن كتابته أدعى إلى الثقة والاطمئنان والذكرى والوفاء ، وأن يكتبه كاتب مأمون عادل ، وليس للكاتب أن يمتنع عن هذه الكتابة التى دعى إليها؛ لينفع الناس بعلمه الذى شرفه به الله .

---

(١) سورة الرحمن (١-٤).
(٢) سورة العلق (١-٥).
(٣) سورة البقرة (٢٨٢).
ليملل : ليملق المدين على الكاتب ما يكتبه .
لا يبخس منه شيئا : لا ينقص منه شيئا .

وهو تعالى الذى ألهم الناس معارف شتى ، منها أنهم يعلمون الجوارح الصيد بهذا الإلهام وبالفعل الذى منحهم الله إياه .

قال تعالى : (يسألونك : ماذا أُحِلَّ لهم ؟ قل أُحِلَّ لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين ، تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله إن الله سريع الحساب)(١)

أى يقولون لك : ماذا أحل لنا من المطاعم ؟ فقل لهم : أحل لكم مالم يحرمه الله فى كتاب ولا سنة ، وأحل لكم ماتصيده جوارح السباع والطير التى علمتموها الصيد بإلهام من الله وبالعقل الذى خلقه الله .

ومن هذه الجوارح الكلاب والفهود والصقور والبزاة .

تقدير القرآن للعلماء

يتردد فى القرآن الكريم الثناء على العلماء والتنويه بشأنهم ، واختصاصهم بالتدبير والتعقل والتفكير ، كما يتردد تقدير العلم ووسائل العلم فى آيات كثيرة .

---

(١) سورة المائدة (٤) .
الجوارح : جمع جارحة والهاء للمبالغة والجارح هو الحيوان المدرب على الصيد مثل : الكلاب والصقور .
مكلبين : مؤدبين ومروضين وممرنين .

(١) وحسب العلماء تقديرا أن الله تعالى قرنهم بالملائكة فى الإقرار بوحدانيته وعدله ؛ لأنهم هم الذين يفكرون فيهديهم تفكيرهم إلى الحق ، وهم الذين يستطيعون أن يثبتوا بالأدلة ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وما يتنزه عنه من صفات النقص ، ويوقنون بأنه العزيز الذى لا يغالبه أحد ، الحكيم الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه ، ودبره فأحكم تدبيره .

قال تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) (١)

(٢) والعلماء هم أولو المعرفة والتجربة والخبرة ، وهم القادرون على الفهم الرشيد والتوجيه الصحيح ، وهم أهل المشورة والفتيا .

قال تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) (٢)

وقال سبحانه : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه

---

(١) سورة آل عمران (١٨).
(٢) سورة العنكبوت (٤١-٤٢).

الذين يستنبطونه منهم)[1].

فقد كان بعض الأغرار من المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة وظفر، أو خوف وضعف وخلل أذاعوه ، وكانت إذاعتهم ضارة بالمسلمين كاشفة لما ينبغى ألا يكشف وكان على هؤلاء المذيعين ألا يشيعوا ما سمعوا ، وأن يسألوا رسول الله وكبار الصحابة ليعرفوا الحقيقة من ذوى المعرفة والتدبير والعلم بمكايد الحروب .

وهنا توجيه كريم يجدر بالمسلمين أن يمعنوا أنظارهم فيه ، وأن يهتدوا به وهم يناضلون أعداءهم ، ولهذا علق ابن المنير الاسكندرى على تفسير الزمخشرى للآية بقوله : (فى هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع ، وكفى به كذبا ، وخصوصا عن مثل السرايا والمناضلين للأعداء والمقيمين فى نحور الأعداء وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم خيرا أو غيره . ولقد جربنا ذلك فى زماننا هذا - القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى أيام الحروب الصليبية - منذ طرق العدو المخذول البلاد ، طهرها الله من دنسه وصانها عن رجسه ونجسه ، وعجل للمسلمين الفتح، وأنزل عليهم السكينة والنصر)[2].

(٣) والعلماء هم الذين يتفقهون فى الدين ، وهم الذين يرشدون قومهم ، ويبصرونهم بالحق ليتبعوه ، ويحذرونهم الشر

---

(١) سورة النساء (٨٣). أذاعوا به : أذاعوه وتحدثوا به . يستنبطونه : يستخرجون خفاياه .

(٢) هامش الكشاف للزمخشرى ٢٨٥/١ .

قال سبحانه وتعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون)[1]

وذلك أنه بعد غزوة تبوك ، وبعد أن أنزل الله تقريع المتخلفين ، جعل المسلمون يستبقون إلى الجهاد ، وينقطعون عن التفقه فى الدين فنزلت الآية الكريمة تبين أنه ليس من الصواب أن يشخص المسلمون جميعا إلى الجهاد ، بل يشخص بعضهم ، ويبقى آخرون ليتعلموا الدين ، وليعلموا إخوانهم المجاهدين بعد عودتهم .

(٤) والعلماء هم الذين يخافون الله ويقدرونه حق قدره ؛ لأنهم يوقنون بوحدانيته وقدرته وعدله وحكمته وكماله المطلق .

قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور)[2]

(٥) لهذا كان العلم درجات ، وليس له حد ينتهى إليه ، وكان العلماء أصحاب مكانة عالية عند الله تعالى .

---

(١) سورة التوبة (١٢٢) .
(٢) سورة فاطر ٢٧-٢٨ .
جدد : خطط وطرائق مفردة جدة ، غرابيب سود : مفرده غربيب ،

قال سبحانه : (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم)[١]

وقال سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير)[٢]

(٦) وشتان ما بين العلماء والجهال ؛ لأن العلماء أولوا بصر والجهال ذوو عمى ، ولن يستوى الذى يعلم أن القرآن حق والجاهل الجاحد الذى عمى عن هذا الحق .

قال تعالى : (أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب)[٣]

وقال سبحانه : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب)[٤]

(٧) وحسب العلم من التقدير أن ترددت فى القرآن الكريم كلمة العلم والفقه والتدبير ، والعقل ما يؤدى معانيها ويتصل

---

(١) سورة يوسف (٧٦).
(٢) سورة المجادلة (١١).
انشزوا : انهضوا للتوسعة على المقبلين أو من مجلس الرسول.
(٣) سورة الرعد (١٩).
(٤) سورة الزمر (٩).

بوسائلها نحو ألفى مرة .

وأن الله تعالى أقسم بالقلم وبالكتاب فى قوله (والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون) .[1]

وهو سبحانه وتعالى لم يقسم إلا بكل عظيم عجيب مماخلق.

التفكير يهدى إلى الإيمان:

ما أيسر على الناس - إذا تدبروا فى خلق السموات والأرض - أن يهتدوا إلى أن ربهم واحد لا شريك له ، قادر لا يعجزه شىء ، حكيم لا فطور فيما خلق ، عليم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، فليس يصح أن يسمى غيره إلها ؛ لأن الله تعالى : هو الذى خلق كل شىء ، فأحسن خلقه ، وقدره فأحكم تقديره ، وهو الذى يغدق النعم كلها ، وجميع من سواه وما سواه لا يعدو أن يكون نعمة من الله .

وهؤلاء الذين يفكرون ويتدبرون هم الذين يستحقون وصف الله تعالى لهم بأنهم أولو الألباب ، لأنهم يفتحون أبصارهم وبصائرهم للنظر والتدبر والاستدلال والاعتبار فيعرفون ربهم ويذكرونه ذكرا دائبا ، وهم الذين يفكرون فيما أبدع الله فى الارض وفى السماء ، وفيما دبر من عجائب تدل على قدرته

(١) سورة القلم (١-٢).

وحكمته وعظمته ، وتعجز العقول عن إدراكها ، وينزهونه عن كل نقص ، ويعبدونه ويطيعونه ، ويرجون ثوابه ، ويخشون عقابه .

قال تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار)[1]

(١) بطلان المصادفة ..

إن نظرة واحدة إلى الكون بل إلى قليل مما فى الكون لتملأ النفس بهرا بما فيه من روعة ودقة وقوانين ثابته مطردة .

يتجلى هذا فى الكواكب والنجوم التى لا تحصى ، وفى الأرض وما عليها ومن عليها ، وفى كل مخلوق سواء أكان كبيرا أم صغيرا .

ومن العبث بالعقل وبالوجدان ، ومن الضلال المغرق فى العمى والجحود أن يعزى شىء مما فى الكون إلى المصادفة ؟ لأن المصادفة أعجز من أن تحقق أضأل شىء مما فى الكون العظيم ، أو تهيمن على أيسر قانون مما يسير عليه الكون كله .

---

(١) سورة آل عمران (١٩٠-١٩١) .

ولقد صدق بالى (PALY) فى قوله إن عُدد الساعة الدقيقة أقل إثارة للدهشة بمراحل من دقة القوانين التى نراها فى الطبيعة ووجّه الأنظار إلى أن دقة الساعة تثبت لأكثر الناس شكا أن وراء هذه الدقة عقلية ميكانيكية ، وقال إننا لو فرضنا أن هذه الساعة قد منحت قدرة على إيجاد ساعات أخرى فإن هذا لا يكون معجزة تفوق معجزة توالد الإنسان والحيوان.(١)

وإن ضآلة المصادفة لتتجلى فى هذا المثال : لو أخذنا عشر قطع متساوية الحجم من الورق ، ورقمناها من واحد إلى عشرة ، ووضعناها فى كيس وخلطناها ، ثم حاولنا أن نسحب الأوراق كترتيبها من الأولى إلى العاشرة ، فإن فرصة خروج الورقة الاولى تكون بنسبة واحد إلى عشرة وخروج الورقة الاولى والثانية متتابعتين بنسبة واحد الى مئة ، وخروج الأوراق الأولى والثانية والثالثة متتالية بنسبة واحد إلى ألف وخروج الأوراق الأربع الأولى متلاحقة بنسبة واحد إلى عشرة آلاف ، وخروج الخمس الأولى متتابعة بنسبة واحد إلى مائة ألف ، وهكذا .. .. حتى تصير فرصة خروج الاوراق العشرة بترتيبها التصاعدى بنسبة واحد إلى عشرة بلايين .

ومن هذا المثال يتضح أن المصادفة لا يمكن أن تضع قانونا ولا يمكن أن تكفل شيئا من هذه المعجزة المذهلة التى تبدو فى كل ما نراه فى الكون العظيم.

ثم لماذا لم تصنع المصادفة الأحياء كلهم أناسا أو

---

(١) العلم يهدى إلى الإيمان (٤١). كريسى موريسون ـ ترجمة محمود صالح الفلكى .

نباتات أو حيوانات ؟

ولماذا تنوعت اجناس الناس ذكرانا ، وأناثا ، وتعددت أنواع الحيوان وأصناف النبات الى مالا يكاد يحصى .

لماذا تعددت الخلايا ، فصارت هذه انسانا ، وأصبحت تلك حيوانا وأوجدت الثالثة نباتا ؟

أليس هذا التقسيم الحكيم مقصودا أيما قصد ؟
يكفى أن نتصور للأرض حالتين ليتجلى هذا القصد المدبر.

الاولى: أن الارض معمورة بالانسان والحيوان ولا نبات بها .
الثانية : أنها عامرة بالنباتات وحدها وليس عليها حيوان .

فماذا نجد .. .. ؟

لا شك أن الاكسجين ينفذ فى الحالة الاولى اذ يستهلكه الحيوان والانسان ، فلا يبقى انسان ولا حيوان .

ولا شك ان ثانى اكسيد الكربون ينفذ فى الحالة الثانية فيموت النبات كله ، وتصير الارض حصيدا كأن لم تغن بنبات من قبل .

فمن ذا الذى كفل هذا التعادل ودبره وسيطر عليه غير الخالق العليم الحكيم المدبر سبحانه وتعالى ؟

ولقد رفض المصادفة كثير من الفلاسفة القدماء والمحدثين مثل سقراط ، ولابلاس ، وبوانكارى ، وكميل فلاماريون .

قال سقراط فيما سجله عنه افلاطون :

" ليس فى العالم الذى نراه شىء متروك للمصادفة ، لأن كل جزء متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها ، وهكذا حتى يتم الوصول الى غاية نهائية وحيدة .

فمن أين نشأ هذا النظام الكامل المحفوف بالعظمة والجلال فى كافة النواحى .

ليس من الممكن أن نحمل ذلك على المصادفة ، فلا بد اذن من وجود صانع وحيد قادر ، لا تدركه الحواس ، فهو كالشمس تمس جميع الأبصار ، ولكنها لا تبيح لأحد أن ينظر اليها .

وقال لابلاس وهو من كبار العلماء الرياضيين الفلكيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر :

(لا يمكن أن ينسب النظام المحير للعقول المشاهد فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية الى المصادفة بل ان المصادفة كلمة لا يصح النطق بها فى لغة العلم ، ان المصادفة مستحيلة فى هذا العالم الذى نرى فيه كل شىء خاضعا لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التىعينتها ارادة غيبية وحكمة بالغة ، فلا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلى منظم لهذا النظام) .

(ان ما فى هذا العالم من الاتساق والنظام لا يمكن أن يحمل على المصادفة).

وكذلك ذهب كميل فلاماريون – وهو غير متدين – فى قوله (ان النظام العام المسيطر على الطبيعة ، وآثار الحكمة المشاهدة فى تكوين كل شىء ، والحكمة البالغة المنتشرة كضياء الفجر ، كل هذا يدل على أن القدرة الالهية المطلقة هى الحافظة للكون ، وهى المصدر الاصيل لنظامه وكافةقوانينه)*

(٢) بطلان المادة المتطورة :

من اللغو أن يصدق انسان المصادفة ، ومناللغو أيضا أن يصدق بأن المادة نفسها تفاعلت تفاعلا طبيعيا أو كيمائيا فصنعت الحياة .

لقد زعم أنصار المادية انها سبقت كل شىء ، ثم تطورت من تلقاء نفسها خضوعا لقانون الحركة المادية بغير حاجة ما إلى عقل كلى ، فكان النبات ، ثم كان الحيوان ، ثم كان الانسان .

ولست أدرى كيف غفوا عن سؤال أنفسهم :
ومن الذى صنع المادة ؟
ومن الذى مكن للتفاعل أن يحدث ويتم ؟

---

* الدين والعلم للمشير أحمد عزت باشا .. ترجمة الدكتور عبدالوهاب عزام والاستاد حمدى طاهر ١٥ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٥ .

ومن الذى أوجد قانون الحركة ؟
ومن أين للمادة أو للتفاعل المادى ان يصنع المعجزات التى يقوم عليها الخلق كله ؟

إن أُذن الانسان وحدها مكونة من أجزاء ، فى جزء واحد منها قرابة أربعة آلاف خلية دقيقة معقدة متدرجة فى حجمها وفى شكلها بأدق نظام ، لتلتقط ولتنقل الى المخ ما خفت وعلا من النغمات والاصوات .

ان التطور خاضع لسبب أو لاسباب ، والتفكير السليم يبحث وراء كل سبب عن مسببه ، ووراء كل حادث عن موجده ، حتى ينتهى الى الموجد الأول وهو الله سبحانه وتعالى .

أما الركون الى تطور المادة فهو عناد لا منطق له ، وفرار لا قوة له ، وضلال لا يهتدى الى حق .

ولقد زرع الناس منذ عشرات الالوف من السنين ، زرعوا قمحا وفولا وزرعوا عدسا وبصلا ، وغرسوا أنواعا شتى من الشجر فلم يحدث ـ ولن يحدث ـ أن بذر فلاح حنطة فنبت عدس ، أو بذر قمحة فصارت عود ذرة ، أو غرس فسيلة نخل فصارت شجرة رمان أو وضع فى التربة كرمة فاذا هى شجرة برتقال ، مع أنها فى مكان واحد ، وتسقى بماء واحد ، وتتنفس من هواء واحد .

فأين البيئة ؟ وأين التفاعل ؟

" وفى الارض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الاكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون " [1]

ولقد لاحظ الدارسون أن ثعابين الماء اذا ما اكتمل نموها ارتحلت من أماكنها حيثما كانت متجهة الى جنوب برمودا وهنالك تبيض وتموت أما الصغار فانها لا تلبث ان تتجه الى الاماكن التى وفدت منها أمهاتها ، حتى اذا ما بلغتها ، واكتمل نماؤها فعلت ما فعلته أمهاتها من قبل ، فمن علمها هذا وألهمها آياه ؟

وكيف اهتدت الى مواطن أمهاتها ومسالك طرقاتها ؟
لا شك أنها فعلت ذلك بغريزتها .
ولكن من الذى أودع فيها هذه الغريزة ؟
انه الله الخالق المدبر ، ولا شىء سواه .

ويحاول الماديون أن يستروا عجزهم ، فيقولوا : انكم تنسبون الخلق كله الى غائب عنا وعنكم ، ونحن لا نؤمن بالغيب لأننا لا نحسه ولا نراه .

وقد نسوا أو تناسوا أن زعمهم فى وجود المادة وفى تطويرها ليس الا رجما بما غاب عنا وعنهم ، لا نحسه ولا نراه ، وهم لا يحسونه ولا يرونه .
فمن منهم رأى المادة وهى توجد نفسها ؟
ومن منهم رآها وهى تتطور ؟

---

(١) سورة الرعد (٤).

تحكيم التفكير فى الاستدلال على وحدانية الله وقدرته

يزخر القرآن الكريم بالأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته وحكمته ، وكثيرا ما يوجه الابصار والبصائر الى عجائب الكون فى الارض وفى السماء وفيما خلق الله من نبات وحيوان وجماد ، ويعقب على هذا التوجيه أو يقدم له بأن فى مظاهر الكون وعجائبه الأدلة المقنعة للعقلاء وللعلماء وللمفكرين وللمتدبرين ولأولى الألباب .

التفكير يهدى الى الايمان

وحسبنا ان نمثل ببعض آيات كريمة من هذا الطراز :-

(١) يرى العقلاء قدرة الله تعالى فى خلق السموات والارض ويرونها فى تعاقب الليل والنهار ، ويجدونها فى السفن التى تجرى على الماء تحمل الناس وما ينفع الناس ، ويبصرونها فى المطر الذى ينزل من السماء فتخضر به الارض بعد جدبها ، وينظرونها فى الدواب التى خلقها الله ونشرها فى الافاق ، ويعلمونها فى توجيه الرياح جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ، باردة وحارة ومعتدلة ، ولينة وعاصفة ، ولواقح وعقما ، وينظرونها فى السحب التى تتجمع من بخار الماء فتتحرك فى الجو مع الريح وتمطر حيث يشاء الله أن تمطر ، فان هذه كلها تخضع لقوانين ثابته من صنع الله وحده ، وهو سبحانه الذى سخرها لهذه القوانين ، وهو وحده المهيمن عليها .

وان التفكير السريع العجلان فى الشكل العام للارض وحدها

لدليل على انها لم تتخذ وضعها مصادفة ، بل خلقها على هذه الصورة قدير مدبر حكيم ، فلو كانت أكبر من حجمها أو اصغر ، ولو اختلفت سرعة دورانها عن سرعتها الحالية ، لصارت اقرب الى الشمس أو أبعد من وضعها الحالى ولنشأ عن قربها او بعدها هلاك ما عليها من أحياء بل لصارت غير صالحة لنشأة حياة عليها:

" قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ افلا تسمعون ؟ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ". (١)

وقد أثبت علماء الفلك أن عطارد لا يقابل الشمس الا بجهة واحدة منه ، ولا يدور حول محوره الا مرة واحدة ، يتمها مع دورة الشمس الكاملة وينشأ عن هذا ان جهته المقابلة للشمس دائما أتون غير صالح للحياة وجهته الاخرى متجمدة لا تصلح للحياة .

أما الأرض فإنها تدور حول محورها دورة كاملة فى كل أربع وعشرين ساعة بسرعة قدرها ألف ميل فى الساعة ، فلو انها دارت بسرعة قدرها مثلا مئة ميل ، لطال النهار ولطال الليل عشر مرات ، وهنا تحرق شمس الصيف الحارة المشرقة طويلا نبات الأرض ، ويتجمد هذا النبات من الليل الطويل البارد .

---

(١) سورة القصص (٧١-٧٣) - سرمدا : دائما ابدا

ولكن قدرة الله اقتضت أن تكون الأرض فى موضع يكفل للناس والنبات وللحيوان الحرارة الكافية ، التى تحيى ولا تهلك .

وهذه الأرض تدور حول الشمس بسرعة ثمانية عشر ميلا فى الثانية ولو انها دارت بسرعة اقل من ذلك او اكثر لكان البعد عن الشمس أو القرب اليها قاضيا على الحياة .

على أن حكمة الخالق تعالى أقتضت أن تكون الكرة الارضية مائلة عن محورها بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة . والحكمة فى هذا الميل ألا يصير القطبان فى ظلام دائم ، وألا يسبح بخار الماء المتصاعد من المحيطات إلى الشمال وإلى الجنوب تاركا فى مسابحه جبالا من الجليد،وفى هذه الحالة تتدفق انهار من الجليد الى قاع المحيط المغطى بالملح فتصنع بركا او ملاحات من الملح الاجاج ، ويحدث شىء آخر هو ان جبال الجليد تتثاقل على القطب الشمالى وعلى القطب الجنوبى فتتفلطح الارض عند خط الاستواء ، وينخفض المحيط ، ويقل هطول المطر .

ولولا اختلاف كثافة الخشب والماء ما سبحت سفن ، اليس معنى هذا كله ان الخالق القادر الحكيم المدبر هو الذى برأ الكون ، وأخضعه لنظام دقيق عجيب رائع لا يتخلف .

قال تعالى : " والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما انزل الله

من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون "[1] .

(٢) والله تعالى هو الذى يخرج من الحب ومن النوى نباتا وأشجارا وثمرات ، وهو الذى خلق حبة الحنطة والشعير والفول ، وخلق النواة مشقوقة ذات فلقتين .

وهو الذى يخرج الأحياء من الموتى ظاهريا كالجنين من النطفة والفرخ من البيضة والشجرة من البذرة ، وهو الذى يخرج الميت من الحى سواء أكان الموت حقيقيا كالنفايات من الاجسام ، والأخشاب من الأشجار ، والأصداف من اللؤلؤ والمرجان من شعب المرجان أم موتا ظاهريا كالبيض من الدجاج ، وهو الذى يقضى على الأحياء بالموت فكيف يغفل العقلاء عن هذا ، وينصرفون عن عبادته الى عبادة سواه ؟

وهو الذى خلق الشمس مضيئة ، وخلق الليل والنهار ، وجعل نور الصباح يمحو الليل وجعل الليل زمنا للسكون والاستجمام والاسترواح الى الأهل ، وجعل الشمس والقمر يسيران بدقة ونظام ثابت ، فيتخذ الناس من دورانهما مواقيت لمعرفة الايام والشهور والاعوام .

وهو الذى خلق النجوم ليهتدوا بنورها ومواقعها فى سيرهم فى البر وسبْحهم فى البحر،وفى هذا براهين على وحدانية الله

---

(١) سورة البقرة (١٦٣-١٦٤).

وقدرته للذين يتعرفون النجوم ودورانها ومسيرها ، وهو الذى ذرأ الناس من آدم وحواء ، ومهد لهم الأرض ليستقروا بها أحياء ثم يدفنون فيها أمواتا ، وهذه أدلة واضحة للذين يتدبرون فى خلق الله وفى قدرته وحكمته .

قال تعالى : " ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر و البحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ،فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . " (١)

(٣) ولقد وجه المتفكرين إلى مظاهر أخرى لقدرته وحكمته لأنهم هم الذين يعقلون ويتعرفون فيهتدون ويهدون غيرهم .

فهو سبحانه الذى خلق الأرض وبسطها على هذه الصورة التى تكفل المعيشة فوقها ، والانتفاع بخيراتها ، والتنقل بين أرجائها وجعلها فى موضعها من الشمس ، فلا هى قريبة إليها قربا تهلك حرارته ولا هى بعيدة عنها بعدا لا تحتمل برودته ،

---

(١) سورة الأنعام (٩٥-٩٨).
الإصباح : الصبح سكنا : وقت سكون وراحة
حسبانا : حسابا أى وسيلة حساب .
مستقر : مكان استقرار فوق سطح الأرض .
مستودع : المراد القبور أو مستقر الرجل تستقر النطفة فى ظهره ومستودع المرأة مستودع الجنين فى رحمها ، فكأنه قال خلقكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى .

وأغناها بالعناصر المختلفة والثمرات المتعددة التى ينتفع بها الإنسان والحيوان والنبات .

وهو الذى أرسى على الأرض جبالا شاهقة لها أثرها العظيم فى توجيه الرياح ، ويغطى بعضها ثلج يذوب ماء ينحدر الى الأنهار ، وهى ضاربة بأصولها الى الأعماق راسخة ثابته تساعد على حفظ اتزان الارض فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، وهو الذى أجرى على الارض انهارا تمتلىء بماء المطر أو بماء ذائب من الثلج المتراكم على قمم الجبال ، ليشرب منه الناس وليسقوا زروعهم وحيوانهم، واقتضت حكمته أن تجرى الانهار كلها من أعلى الى أسفل فى أى اتجاه .

وهو الذى خلق فى الأرض انواعا من النباتات تتكاثر ذكورا واناثا اذ تنتج الذكور حبوب اللقاح ، وتنتج الإناث الطلع ، فإذا ما تم التلقيح كانت الثمرات ، ولقد اختص الأشجار المثمرة بالذكر لأنها هى التى يطعم الناس من ثمراتها.

وهو الذى يصرف الليل والنهار ، فيتعاقبان ، ويحل كل منهما محل الاخر ، ولولا دوران الارض حول محورها أمام الشمس من الغرب الى الشرق ما تعاقب الشروق والغروب ولكن ليل دائم او نهار دائم ، الحياة لا يلائمها دوام هذا ولا ذاك .

والذين يسترشدون بعقولهم يجدون فى خلق الله كثيرا من الدلائل على قدرته ، ففى الأرض بقاع متجاورة لكنها مختلفة الطبيعة فهذه خصيبة وتلك جديبة ، وهذه مبسوطة وتلك تلال أو

جبال او هضاب أو وهاد ، وهذه حجرية وتلك رملية أو طينية وفى جوف هذه معادن وفى جوف تلك نفط أو ماء أو غاز وهكذا ..

وفى الأرض حدائق من عنب ونخيل وزروع شتى ، ولكن نباتها يختلف جنسا ونوعا وشكلا وطعما وحجما ورائحة ، مع انها كلها تنبت فى مكان واحد ، وتشرب من ماء واحد ، وتتنفس فى جو واحد .

نستوحى هذا كله من قوله تعالى :

" وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وانهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات ،وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن ذلك لآيات لقوم يعقلون" (١).

(٤) وان فى البقر والغنم لعظة لمن يفكر ، وبرهان على وجود الخالق المدبر ؛ لأنها بقدرته تأكل علفها ، فيتحول الى فرث ودم ولبن اذ يجرى الدم فى عروقها ، ويبقى الفرث فى كرشها ، ويتجمع اللبن فى ضروعها نقيا خالصا سائغا للشاربين .

فقد خلق المولى سبحانه وتعالى فى ضروع الماشية غددا لافراز اللبن تمدها الأوعية الشريانية بخلاصة من الدم والكيلوز- خلاصة الطعام المهضوم - فتستخلص الغدد اللبنية العناصر التى تكون اللبن من الدم والكيلوز ، وتضيف اليها عصارات أخرى .

---

(١) سورة الرعد (٣-٤) .
صنوان : جمع صنو وهى النخلة لها جذعان أصلهما واحد .
الاكل : الطعم .

فينشأ اللبن مغايرا فى طعمه ولونه ورائحته لكل ما تكون منه .

قال تعالى : (وان لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) (١)

(٥) ولله فى خلق النحل برهان على قدرته للذين يتفكرون لأن تفكيرهم لابد أن يهديهم إلى الإيمان بوجوده والإذعان لقدرته، فقد الهم النحل أن تتخذ بيوتها من الجبال ومن الشجر وفيما يبنى الناس لأنفسهم وفيما يصنعون لها من خلايا لتتعسل فيها ، وألهمها أن تمتص من رحيق الأزهار التى تشتهيها ، فاذا طعمت اتبعت ما الهمها الله من وسائل لتصنع العسل مما طعمت ، وهى فى تجوالها بين خلاياها والزهر تهتدى بغرائزها التى أودعها الله فيها الى أماكنها التى عرشت بها لا تضل ، وفى هذا العمل الذى تخرجه من بطونها مختلف الألوان غذاء شهى وطعام مفيد ، لأنه يحتوى على قدر كبير من الفيتامينات وخاصة فيتامين (ب) المركب ، ولانه اسهل انواع السكريات هضما ، وقد ثبت أنه يقوى الجسم ، ويفيد فى علاج كثير من الأمراض . روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له :ان اخى يشتكى بطنه ، فقال له النبى : اسقه عسلا ، فذهب وعاد فى اليوم الثانى يقول : سقيته عسلا فلم ينفعه فقال له النبى اذهب واسقه عسلا ، فعاد فى اليوم الثالث يقول : سقيته عسلا

---

(١) سورة النحل (٦٦) بطونه : ذكر الضمير هنا لارادة الجنس فرث : فضلات طعام الحيوان مادام فى كرشه ، فاذا خرج منه سمى سرجينا . خالصا: لا دم فيه ولا راشحه للفرث . سائغا : سهل الاستساغة لذيذ الطعم .

فلم يبرأ ، فقال النبى : اذهب واسقه عسلا ، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فشفاه الله .

وهنا يجدر أن الخص ما قاله الطبيب المشهور الدكتور جارفس عن الشهد فى كتابه الطب الطبيعى :

فقد ذكر الشهد ، وعلل لأثره فى التغذية والشفاء بأسباب علميه يعتمدها الأطباء والصيادله فى تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها ، وقال ان التجربة المحققة أثبتت أن البكتريا لا تعيش فى الشهد ، لانه يحتوى على مادة البوتاس التى تحرم البكتريا الرطوبة الملائمة لحياتها .

وذكر أن الدكتور ساكيت - أستاذ البكتريا بكلية الزراعة فى فورت كولنز - وضع أنواعا من جراثيم الامراض فى قوارير مملوءة بالشهد الصرف فماتت جراثيم التيفود بعد ثمان وأربعين ساعة ، وماتت جراثيم النزلات الصدرية فى اليوم الرابع ، وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات وماتت جراثيم اخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد الدكتور جارفس الى بيان المواد الغذائية ، فعد أكثر من عشرة معادن غذائية داخلة فى تركيب الشهد ، ونقل تقرير الاستاذ شويت العالم الكيماوى الذى يقول فيه ان الاغذية المعدنية تختلف باختلاف الوان الشهد ، فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى الشهد الضارب الى السواد ،ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان الشهد ، كما

جاء فى القرآن الكريم " يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس " .

ثم أجمل الدكتور جارفس مزايا المادة السكرية فى الشهد فذكر منها :

(١) انها لا تهيّج جدران القنوات الهضمية .
(٢) انها سريعة الهضم والسريان فى البنية .
(٣) انها سريعة التحول الى طاقة بدنية .
(٤) انها مناسبة للمشتغلين بالالعاب الرياضية لتعويض الطاقة .
(٥) هى أوفق أنواع السكريات للكليتين .
(٦) هى مهدئة ملطفة .
(٧) وهى مساعدة على الهضم .

ثم مضى بعد ذلك ، فبين خصائص الشهد فى العلاج وفى غذاء الكبار والصغار ، وفسر هذا بالأسباب العلمية ، فأجمل تلك الخصائص فى خمس وعشرين صفحة . ولم يذكر فى سائر فصول الكتاب دواء طبيا آخر له مثل هذه الخصائص ، او لخصائصه مثل هذا الثبات بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل والمشتغلين بالتطبيب .[1]

واذا كان القرآن الكريم قد ذكر النحل والعسل مظهرا من مظاهر قدرة الله فان دراسة حياة النحل وصنعها للعسل تزيد الدارس ايمانا بهذه القدرة .

---

(١) [illegible]

وحسبى ان أشير الى أن الخلية تجمع ثلاثة أنواع من النحل هى الشغالة والذكور والملكات ، ولكل منها عمل ، فالشغالة أصغر النحل حجما وأكثرها عددا تنهض بالاعمال الكبيرة ، فتعنى بصغار النحل وتطعمها ، وتنظف الخلية وتهويها وتحميها من الدخلاء ، وهى التى تمتص الرحيق من الأزهار ، وتحوله فى بطونها الى عسل وهى تفرز الشمع فى غدد فى جسمها وتبنى منه الأقراص ، وقد زودها الخالق تعالى بغدد لعابية تفرز نوعا من الخمائر تحول الرحيق الى عسل فى حواصلها ، فتطعم ببعضه صغار النحل ، وتختزن بعضه فى البيوت الشمعية السداسية الشكل .

أما الملكة فهى اكبر النحل حجما ، وليست لها غدد شمعية ولا جهاز لجمع حبوب اللقاح على أرجلها الخلفية كالنحلة الشغالة وهى انثى كاملة لا عمل لها بالخلية الا وضع البيض ، والبيض الذى تضعه نوعان : نوع مخصب يفقس فتخرج منه ملكات أو شغالة ، ونوع غير مخصب ينتج الذكور وقد تعيش الملكة عدة سنوات ، وتبيض قرابة مليون ونصف بيضة فى حياتها .

وأما الذكور فهى وسط بين الملكة والشغالة حجما ، ولا عمل لها الا تلقيح الملكة ، وأعضاء الشم عندها قوية حادة لتساعدها على معرفة الملكة وهى تطير خارج الخلية ، واجنحتها أقوى من أجنحة الملكة ولهذا تستطيع أن تلحق بها وتمسكها لتلقحها .

ولقد اتضح للعلماء ان النحل لا تجذبها الازهار الزاهية

كما نراها بعيوننا ، لأنها تراها بالضوء فوق البنفسجى الذى يجعلها أجمل وأبهى فى عيوننا .

وعرفوا ان القرص الشمعى يحتوى على ثلاثة أشكال من البيوت : بيوت سداسية تضع فيها الملكة بيضا غير مخصب ، ينتج الذكور وبيوت سداسية أصغر قليلا من هذه ، تضع فيها الملكة بيضا مخصبا ينتج الشغالة وبيوت اسطوانية مستطيلة تضع فيها الملكة عددا قليلا من البيض المخصب الذى ينتج الملكات .

وتبينوا أن النحل يحول الرحيق إلى عسل بتحليل السكروز الذى امتصه من الازهار الى جلوكوز وفركتوز ، ويطرد الجزء الاكبر من الماء الذى بالرحيق .

وقد كان النحل وما زال مضرب المثل فى الدقة والنظام والعمل والانتاج .

اقرأ قوله تعالى وتدبره ، فلعله يدلك على هذا وعلى اكثر منه .

" وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون " (١)

---

(١) - سورة النحل (٦٨ - ٦٩) . مما يعرشون : مما يجعلونه عريشة لسقف البيت او تحت شجرة الكرم ، ذللا : جمع ذلول وهو السهل .

(٦) ولله سبحانه وتعالى قدرة تتجلى لأولى الالباب فى أنه خلق الرجال والنساء من جنس واحد ، ليسكن الرجل إلى زوجته وتسكن إليه وربطهما بألفة ورحمة ومودة ، ولو كان الرجال والنساء من جنسين مختلفين ما تم إلف وتراحم .

وهو الذى برأ الناس ، وأقدرهم على النطق بلغات شتى ، وميزهم بهذا النطق على سائر الحيوان ، وجعل أصواتهم تتباين همسا وجهارة وحدة ورخاوة ، وجعل منطقهم يختلف لكنة وفصاحة .

وهو الذى ذرأ البشر مختلفة صورهم وأشكالهم وألوانهم ، ولهذا الاختلاف فى اللغات والألوان والصور والأصوات حكمة يعلمها سبحانه فلعل الاتفاق فيها والوحدة تكون مدعاة إلى الالتباس والاختلاط والاضطراب والفوضى وفقدان التعارف وذهاب المصالح والمنافع .

والله تعالى هو الذى خلق الناس مستعدين للأعمال قادرين عليها بما منحهم من اعضاء ملائمة وقوى موائمة وتفكير موجه ، وبما فسح لهم من ميادين العمل وأسبابه ، وخلقهم مستعدين للنوم والراحة والاستجمام من عناء الأعمال .

قال تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم

يسمعون)[١].

(٧) ولقد جاءت آيات أخرى تبين هذه المظاهر وأشباهها وتختص العلماء والمفكرين بالاهتداء بها إلى وحدانية الله وقدرته وحكمته .

كقوله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وقدره منازل ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون)[٢].

وقوله سبحانه : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ؛ لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا)[٣].

وذلك انه تعالى خلق القمر خافت النور غير مشرق طول الشهر وخلق الشمس مضيئة دائمة الإشراق كل يوم ، فيبصر الناس فى ضوئها كل شىء ، ويتمكنون من الاستبانة والعمل ،ويعلمون بتعاقب الليل والنهار عدد السنين والحساب وما ينشأ عن هذا العلم من منافع لهم ولولا ذلك لجهلوا الزمن ، ولتعطلت مصالحهم وعوامل رقيهم وحضاراتهم .

---

(١) سورة الروم (٢١ – ٢٣).
(٢) سورة يونس (٥).
(٣) سورة الإسراء (١٢).

(٨) ولقد يوجه القرآن الكريم العقول إلى التفكير الذى يهدى إلى الايمان والإقرار بالوحدانية والتسليم بالقدرة الإلهية وما يتصل بهما من صفات الكمال .

فمن الضلال أن يعبد الناس مخلوقا أيا كان هذا المخلوق ومن البطلان المخزى أن يشركوا هذا المخلوق فى ملك الله وقدرته .

قال سبحانه : (الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا. واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولانشورا)[1]

وما من شك فى أن العقل السليم والنظر الثاقب والقياس الصحيح يقطع بأنه لو كان فى الكون إلهان أو أكثر لاختل نظامه ، لأن لكل إله إرادة وقدرة لا تتفق وإرادة الآخر وقدرته ، فلا بد أن تتعارض الآلهة .

فإن اتفقت الإرادات والقدر فى كل شىء فلا معنى للتعدد ، لانه لا مسوغ له ، وان تعارضت الآلهة وغلب أحدها فلا يصح أن يكون المغلوب الها ، وان تعارضت وتصارعت ولم يستطع أحدهما الغلبة فسد الكون كله وانهار نتيجة لهذا الصراع .

---

(١) سورة الفرقان (٢ - ٣).

قال تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[١]

وقال سبحانه : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة ، فتعالى عما يشركون)[٢]

(٩) وكثيرا ما جاءت فى كتاب الله تعالى أسئلة للتحدى ، اقترن فيها التحدى باستثارة العقول الخامدة ، وإيقاظ القلوب الجاحدة ، والحض على التفكير والتعقل .

فقد سألهم : هل لاحد منكم شركاء من عبيده يهابهم فيما يريد أن يفعل او يذر أو يستقل بتصريفه من شئون ؟

وهل لهؤلاء العبيد أن يبتدئوا بعمل لا يرضاه سيدهم؟
وهل يهاب الأحرار عبيدهم كما يهاب بعضهم بعضا ؟

الجواب على هذا كله بالنفى ، فكيف يعقل انسان أن يكون لله تعالى - وهو خالق الأحرار والعبيد ومالكهم - شركاء من خلقه ؟

إنه الله الذى يستطيع أن يجعل الزرع هشيما ، فتتألمون

---

(١) سورة الانبياء (٢٢ - ٢٣).
(٢) سورة المؤمنون (٩١ - ٩٢).

وتتحسرون على ما أنفقتم عليه من جهد ومال ، وتندمون على معصيتكم لله التى أنزلت بكم هذه الخسارة ، وتقولون إننا لهالكون بهلاك زرعنا وضياع رزقنا ، بل إننا لتعساء لا حظ لنا من الخير .

وسألهم : فكروا فى الماء الذى تشربونه ، من الذى خلقه ؟ أأنتم ام الله ؟ من الذى أنزله من السحاب ؟ أأنتم ام الله ؟ انه الله القدير على جعل الماء العذب ملحا زعافا لا يشفى ولا ينفع من غلة ، فهلا آن لكم أن تشكروا لله نعمه الكثيرة عليكم ؟

وقال لهم : تدبروا فى النار التى توقدونها لمنافعكم الكثيرة ، أأنتم الذين خلقتم شجرها أم الله ؟

ان الله هو الذى خلقها ، وهو الذى يذكركم بها نار جهنم ، وهو الذى جعل فيها منافع لمن يوقدونها فى القفر وفى الحضر لإنضاج الطعام وممارسة الصناعات .

قال تعالى : (افرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على ان نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . افرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ، بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ،

لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين)[1]

قال تعالى : (ضرب لكم مثلا من انفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فانتم فيه سواء تخافونهم كَخِيفَتِكُمْ انفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)[2]

وسألهم : انظروا إلى النطف التى يخلقكم منها ، أأنتم خالقوها أم هو سبحانه ؟ وعقب على هذا بأنه الخالق الذى أحياكم من نطفة، وهو القادر على أن يميتكم وليس بمغلوب على شىء مما أراد ، فهو القادر على أن يخلق أشباهكم وهو القادر على أن يبدلكم خلقا آخر لا تعلمونه ، وهو القادر على أن يبعثكم يوم القيامة أحياء .

وقال لهم : انظروا إلى الزرع الذى تزرعونه ، أأنتم الذين تسيرونه نباتا يرف ويكبر أم الله تعالى ؟

التفكير للعظه بالسابقين

احتفى القرآن الكريم بقصص الرسل السابقين ، وبقص

---

(١) سورة الواقعة : (٥٨-٧٣) افرأيتم : أخبرونى ، مسبوقين: عاجزين ، تفكهون : تندمون ، أجاجا : شديد الملوحة ، المقوين : المحتاجين اليها .
(٢) سورة الروم : (٢٨).

الأمم الخالية وما أفاض الله من النعم على الذين اهتدوا واتبعوا ما دعاهم إليه أنبياؤهم ، وما حاق بالذين عصوا وكذبوا رسلهم واستكبروا استكبارا ليسلك الذين دعاهم محمد عليه الصلاة والسلام طريق الطائعين فيسعدوا برضوان الله وليتجنبوا سبيل العاصين ف ينجوا من سخطه وعقابه .

والذى يعنينا فى هذا المقام بعض القصص التىعقب عليها القرآن الكريم أو قرن بها الحض على التفكير للعظة والاعتبار.

(١) قال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فأقصص القصص لعلهم يتفكرون)[1].

فما هذه القصة ؟

انها قصة عالم من بنى اسرائيل ، آتاه الله علم بعض الكتب ، فكفر فصار الشيطان له قرينا أضله وأغواه .

ولو أنه عمل بما منحه الله من آيات لرفعه الى منزلة الابرار ولكنه كفر واتبع هواه وعمل بما يخالف علمه فصار كالكلب فى خسته وضعته ، لأن الكلب يلهث دائما ،سواء حمل عليه الناس أو لم يحملوا ، على حين أن الحيوانات لا تلهث الا اذا ثارت وهاجت .

---

(١) سورة الاعراف (١٧٥ ــ ١٧٦) .

وهذا التمثيل يصدق على اليهود الذين كذبوا بآيات الله بعد ان قرأوا فى التوراة الصحيحة وصف رسول الله ووصف القرآن المعجز وبعد أن بشروا بمحمد عليه الصلاة والسلام وباقتراب بعثته وكانوا يتشوقون الى الانتصار به على الذين كفروا .

فاقصص يا محمد هذا القصص ، لعل سامعيه يفكرون ، فيحذروا عقاب الله الذى يصيب من ساروا سيرة ذلك العالم وزاغوا مثل زيغه .

(٢) كذلك ذكر الله تعالى قصة ثمود وتمردهم على نبيهم صالح عليه السلام ، واهلاكه تعالى لهم ، وختمها بقوله (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون)[1].

(٣) وذكر قصة قوم لوط وعصيانهم له ، وتدميرهم ، وعقب عليها بقوله : (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون)[2].

أى تركنا من سدوم قرية هؤلاء آثارا من مساكنهم الخربة تشير الى عقاب الله لهم ، ليتعظ بها العقلاء .

(٤) وقرّع الذين يسيرون فى الأرض ، فيرون عاقبة سابقيهم الذين كانوا أشد منهم قوة ومقدرة على العمران ، فلما جاءتهم رسلهم بالأدلة الواضحة على صدق رسالتهم كذبوهم ، فعاقبهم الله

---

(١) سورة النمل (٥٢).
(٢) سورة العنكبوت(٣٥).

تعالى وما ظلمهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

قال تعالى : (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وآثاروا الأرض وعمروها اكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون)[١]

تمثيل موقظ للفكر

فى القرآن الكريم ضروب من التمثيل والتصوير يسوقها للتدليل على وحدانية الله وقدرته ، ويوضح بها أماكن البعث ، ويكشف عن حقائق يجب ألا يشك فى صدقها عاقل ، ويبين ما غشاه الجهل والعناد ويوردها للعظة والاعتبار ، قال تعالى : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)[٢]

وقال سبحانه : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)[٣]

وقال عز وجل : (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم)[٤]

وقد جاء بعض هذا التمثيل مقرونا بالحض على التفكير ، او مصحوبا بالسخرية من الجهال والأغبياء، وهذا الضرب هو

---

(١) سورة الروم (٩) .
(٢) سورة الزمر (٢٧) .
(٣) سورة ابراهيم (٢٥) .
(٤) سورة النور (٣٥) .

الذى يعنينا فى هذا المجال .

(١) قال تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون) [١]

فمثل الذين كفروا وهم لا يستجيبون لمن يدعوهم الى الايمان بالبهائم التى يصيح بها راعيها ويزجرها ، فلا تعى غير تصويته ، ولا تفقه شيئا مما يقوله أو يلفظ به ، لأن الكفار صم عن الحق الذى يسمعون ، بكم عن الاقرار بما يجب ان يقروا به ، ضلال جهال لا يعقلون .

(٢) وقال سبحانه : (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار ، فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) [٢]

ففى هذه الآية تمثيل حال من عمل أعمالا طيبة لا يبتغى بها وجه الله فصارت عاقبتها وبالا عليه بحال من يمتلك حديقة ذات خصب وماء جار وثمرات وقد كبرت سنه ، وله أبناء صغار ضعاف ، فهو فى أشد الحاجة إلى حديقته ، ثم حاقت بالحديقة صاعقة أحرقتها .

---

(١) سورة البقرة (١٧١) .
ينعق : يصيح
مالا يسمع : البهائم
(٢) سورة البقرة (٢٦٦) .

أرأيتم هذا المثل ؟

ان الله تعالى يضربه ويضرب أشباهه ، ويبين لكم الايات الدالة على وحدانيته وقدرته ، فعسى أن تفكروا لتهتدوا إلى الحق وتؤمنوا به وتذعنوا له .

(٣) وقال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه ، آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)[1].

ها هنا تمثيل ذلك العالم الجاحد بالكلب حقارة ودناءة وهذا التمثيل نفسه يصدق على اليهود الذين جحدوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وقد قرأوا فى التوراة الصحيحة الوعد به والبشارة ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ويستعجلون بعثته لينتصروا به عليهم .

(٤) وقال سبحانه : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها امرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)[2].

---

(١) سورة الأعراف (١٧٥-١٧٦) .
(٢) سورة يونس (٢٤) .
حصيدا : هالكا ، لم تغن : لم توجد

فقد شبه الله تعالى حالة الدنيا وقد زال نعيمها بعد إقبال وكسفت حضارتها بعد إشراق ، وهلك أهلوها بعد أن اطمأنوا اليها وحسبوا أنهم قادرون على كل شيء ، بحال الارض التى يزدهر نباتها ويزينها بخضرته ، ورفيفه وثمره ، لكنه لا يلبث أن يجف كله ، ويصير حطاما ، كأنه لم يكن بالأمس .

وهذا التمثيل يستبين للذين يتفكرون ويعون ما يسمعون.

احكام مقرونة بالتفكير

كثيرا ما قفى القرآن الكريم على الاحكام الشرعية وعلى الأوامر والنواهى بالدعوة الى العلم بأسرارها ، والتفكير فى آثارها والمعرفة بحكمتها ، ليستبين للناس ما فيها من خير لهم أفرادا وجماعات وليزدادوا يقينا بأن الله تعالى قد فرضها عليهم وهو العليم بنفوس عباده ، الخبير بما يلائم طباعهم ، المحيط بما يصلحهم ويصلح لهم ، الغنى عن طاعتهم ، الذى لا تضره معصيتهم ، فالخير لهم فى أن يتبعوا ما أمرهم به ، وأن يجتنبوا ما نهاهم عنه عن عقيدة ويقين ، وألايحتكموا فيما أمرهم به أو نهاهم عنه إلى أهوائهم ، لأن الاهواء تصرف عن الحق ، وتزين الشر ، ولأنها تتغاير وتتنافر وتتبدل وتفرق المجتمع وتشيع فيه البلبلة والاضطراب والفوضى ، فيفقد الوحدة والألفة والانسجام . وهى إلى هذا كله موقوته لا دوام لها ضعيفة ليس لها من القوة الذاتية والوازع النفسى ما لشرع الله .

فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

(١) من هذا الضرب قوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو ازكى لكم ، والله بما تعملون عليم)[1]

وقال تعالى : (فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون)[2]

هنا أدب رفيع يأمر الله به عباده ، عسى أن يعوه ويتذكروه ويعملوا به لأن فيه خيرا كثيرا لهم .

فلا يصح أن يقتحم أجنبى دارا غير داره قبل ان يستأذن ويحيى من فيها ، فإن لم يجد فيها أحدا فلا يصح له أن يدخل ، وإن كان بها أحد ولم يأذن له بالدخول فعليه أن يرجع ؛ لأن هذا من الآداب الاجتماعية التى ينبغى على المسلمين أن يراعوها حتى لا يؤذوا غيرهم بالمفاجأة أو الاطلاع على مالا يصح ان يطلعوا عليه من شئون الناس ودخائلهم وأسرارهم ، وحتى يشعر كل شخص بأنه فى مسكنه حر آمن طليق يستريح إذا شاء ، ويتصرف

---

(١) سورة النور (٢٧-٢٨) .
(٢) سورة النور (٦١) .

كما شاء ، ويلبس ما يريد ، ويعمل ما يشتهى وينام كما يحب .

ولا شك ان الاستئذان تمهيد طيب للقاء الزائر والمزور ، وإعداد للحالة النفسية الملائمة للمجاملة والمؤانسة والمحادثة .

(٢) قال سبحانه : (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)[1].

فقد كان بنو عامر فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام الا قوتا يقيم حياتهم ،ولا يأكلون دسما ، يريدون بذلك ان يعظموا حجهم ، فقال بعض المسلمين : نحن أولى بأن نصنع هذا الصنع ، فأمرهم الله بأن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا ، وبأن يلبسوا ثيابهم ويتجملوا فى صلاتهم لأن الذين يحرمون التجمل والملذ من طعام وشراب يكذبون على الله .

ووعد الله عباده المؤمنين أن تكون طيبات الدنيا التى يشركهم فيها الكفار خالصة للمؤمنين يوم القيامة ، وجاء فى ختام الآية إن الله تعالى يفصل الأحكام لقوم يدركون ويعلمون أن الله هو الذى يحلل ويحرم . ومعنى هذا أن التحليل

---

(١) سورة الأعراف (٣١-٣٢) مسجد : المراد عبادة خالصة لا يتمتع بها غيرهم .

والتحريم الخاضعين للأهواء افتراء على الله ، واجتراء على العلم ، ولهذا قال ابن عباس : كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة .

(٦) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون)[1]

وذلك أن قريشا أنكروا أن يكون رسول الله بشرا مثلهم يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق ، فرد عليهم سبحانه وتعالى بأن رسله السابقين جميعا بشر ، ولكن الله اختصهم بالوحى وطلب من المنكرين أن يسألوا اليهود والنصارى ليعلموا منهم أن الله لم يبعث إلى الأمم السابقة إلا رجالا يوحى إليهم .

ثم بين لهم إنه أنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم ليوضح للناس ما أمروا به وما نهوا عنه ، وما بشروا به وما أنذروا ، لعلهم يصغون إلى أمره ونهيه وتبشيره إصغاء من يتدبر ويتأمل ويعى .

---

(١) سورة النحل (٤٣-٤٤).
البينات : المعجزات الدالة على صدق الرسل .
الزبر : جمع زبور وهوالكتاب المشتمل على المواعظ وكلمة البينات والزبر متصلتان بكلمة توحى اليهم.

(٧) وفى القرآن الكريم كثير من هذا الضرب :

أ ـ فمثلا بعد تفصيل أحكام فى معاملة المسلمين للمشركين ، قال تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون) [١].

ب ـ وبعد بيان بعض أحكام الطلاق قال تعالى (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) [٢].

جـ ـ وبعد الأمر بالعدل والاحسان وإعطاء الأقارب ، والنهى عن الفاحشة والمنكر والعدوان تعقيب بالدعوة إلى التذكر للعمل بما أمر واجتناب ما نهى . وقال تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) [٣].

د ـ وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) [٤].

---

(١) سورة التوبة (١١) . (٢) سورة البقرة (٢٣) .
(٣) سورة النحل (٩٠) . العدل : الاعتدال والمساواة والنفقة فى غير إفراط ولا تفريط ، الإحسان : مقابلة الخير بخير أكبر منه ومقابلة الشر بالصفح عنه . الفحشاء : الجرائم المفرطة فى القبح مثل الزنا . المنكر : ما تعافه العقول السليمة ، والبغى : التعدى وهذا من عطف العام على الخاص .
(٤) سورة الصف (١٠-١١) .

سخريـــة ممـــن لا يفكـــرون

لطالما سخر القرآن الكريم ممن حبسوا عقولهم عن التفكير وغلوها عن العمل فضلوا عن الاهتداء إلى الحق والخير ، وعموا عن التبصر فى الدلائل على وحدانية الخالق وقدرته ، وعطلوا أسمى هبة منحهم أياها ، فهم أناس صورة لا حقيقة ؛ لأنهم بتعطيل عقولهم وحبس تفكيرهم صاروا كالأنعام أو أضل سبيلا .

(١) فأولئك الذين تظاهروا بدعوة الناس الى الخير والبر ، وهم لا يأخذون أنفسهم بخير ولا بر ، ويقرأون التوراة ويعلمون ما فيها ولا يعملون بها ، أولئك أناس عطلوا عقولهم وجهلوا كتابهم ، وكانوا قدوة سيئة لغيرهم ، فاستحقوا ان يهزأ القرآن الكريم بهم .

روى أن أحبار اليهود كانوا يأمرون بعض أقاربهم سرا باتباع محمد عليه الصلاة والسلام وهم لا يتبعونه ، أو كانوا يأمرون غيرهم بالصدقات وهم لا يتصدقون ، وإذا جاءتهم أموال ليتصدقوا بها اختصوا بها أنفسهم فوبخهم الله تعالى على فعلهم ؛ لأنهم يأمرون غيرهم بالخير وينسون أنفسهم ، على حين أنهم أولى باتباع الحق وفعل الخير ، لانهم يتلون التوراة وفيها وصف محمد عليه الصلاة والسلام والبشرى ببعثته ، وفيها الوعيد على النفاق والخيانة ومخالفة القول للعمل ، وختم توبيخهم بأنهم لا يفطنون لقبح ما يقترفون ، فكأنهم بغير عقول.

قال تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم

وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟)[١]

(٢) كذلك سخر القرآن الكريم من الجهال الضالين الذين يتعنتون فى مطالبهم ولا أرب لهم إلا العناد والإعنات ، فقد طلبوا ليؤمنوا أن يكلمهم الله ، أو يأتيهم بمعجزة ، وتناسوا أن الرسل جاءوا بمعجزات من قبل فكذبهم أمثال هؤلاء فهم وسابقوهم سواء .

أما أصحاب القلوب المستعدة للإيمان فهم الذين بهرتهم المعجزات فصدقوها ، وهم الذين أيقنوا بوحدانية الله وقدرته .

قال تعالى : (وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون)[٢]

(٣) وهزىء باليهود الحمقى الذين يصفون قضاء الله بما يرضى أهواءهم ، فإن تصبهم نعمة من خصب ورخاء ينسبوها إلى الله وإن تصبهم نقمة من شدة وقحط يضيفوها إلى محمد عليه الصلاة والسلام زاعمين أنها من عنده ومن شؤمه ، كما حكى الله تعالى عنهم فى تشاؤمهم بموسى من قبل (إن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)[٣]

---

(١) سورة البقرة (٤٤) .
(٢) سورة البقرة (١١٨) .
(٣) سورة الاعراف (١٣١) . يطيروا : يتشاءموا

وكما حكى عن ثمود قوم صالح (قالوا : اطيرنا بك وبمن معك)[١].

وذلك أن اليهود تشاءموا برسول الله صلى الله عليه وسلم - فزعموا أنه منذ دخل المدينة نقصت ثمارها ، وغلت أسعارها ، فرد الله تعالى عليهم بأنه هو الذى يبسط الرزق ويقبضه لحكمة يراها سبحانه ولكن اليهود لا يفهمون حقيقة ، ولا يعلمون شيئا .

قال تعالى : (وان تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)[٢].

(٤) على أنهم زعموا مزاعم يأباها الحق والتفكير السليم فادعوا أن ابراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وادعى النصارى أنه كان نصرانيا وجعل هؤلاء وأولئك يجادلون رسول الله فيه ، فكان الرد عليهم السخرية من تفكيرهم الضال لأن اليهودية والنصرانية كانتا بعد إبراهيم فكيف كان إبراهيم على دين لم ينزل إلا بعده ؟ ولو أنهم عقلوا لأدركوا بهتانهم ، ولم يجادلوا مثل هذا الجدل .

قال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ أفلا تعقلون)[٣].

---

(١) سورة النمل (٤٧).
(٢) سورة النساء (٧٨).
(٣) سورة آل عمران (٦٥).

أما بعد :

* فهكذا قدر القرآن الكريم العلم ...
* وهكذا أيقظ العقل ...
* وبهذه الوسائل أثار الفكر ...
* وبتلك المصابيح أنار الطريق ...

فلا عجب أن وثب المسلمون وثباتهم المذهلة ، ولا غرابة في أن قفزوا قفزات لا مثيل لها في تاريخ الأمم ؛ لأنهم اهتدوا بكتاب الله فبلغوا من القوى المادية والمعنوية أوجها ، وعمروا الأرض بحضارتهم في أحقاب مجدهم وما بعدها .

فهل لهم أن يستعيدوا سيرتهم الأولى ..

أرجو أن يكون ذلك جد قريب ..